

خاتمة بطل وقعة الزاب

(١)

في أوائل السنة الهجرية اثنتين وثلاثين ومائة كان تواتر الحوادث في الشرق الأدنى ينذر بقرب وقوع انقلاب سياسي خطير يؤثر تأثيراً بعيد المدى في مصائر الأمم الإسلامية وسير التاريخ العالمي . وكأنما كانت تلك الأرض التي شاهدت ميلاداً أكثر الأديان المعروفة ، ونشأة الدول الشرقية القديمة والأسر الكبيرة ، والتي مرت بها جيوش كبار الفاتحين والغزاة ، تهباً لاستقبال أسرة جديدة ودولة ناشئة ، ولم يكن ذلك غريباً ، فهذه الرقعة من الكرة الأرضية لم تعرف الاستقرار ولا الدوام ، وطالما شاهدت اضطراع المبادئ والمذاهب ، وكفاح الدول والدويلات . وكانت الجيوش الخراسانية الظافرة قد بلغت مدينة شهزور في الشمال واقتحمتها وتقدمت منها إلى نواحي الموصل ، واستولت على الكوفة في الجنوب وجاوزتها متجهة إلى مدينة واسط . وروعت هذه الأنبياء الخليفة الأموي مروان بن محمد ، وأقضت مضجعه ، فأخذ ينفذ عن نفسه غبار الخمول الذي استولى عليه أخيراً بعد أن كاد يئس من تلافي اختلال الأمور ورتق الفتوق وصالح الأحوال . وشرع يجمع جموعه ويعد ما استطاع من قوة وهو مقيم في مدينة حران التي كان يألفها ويطمئن إلى الإقامة بها ، ويؤثرها على غيرها من عواصم

ملكه . وكانت الرسل تختلف بين السياسى الداهية والقائد الموهوب أبى مسلم الخراسانى ، وهو مقيم فى مرو ، وبين زعيم العباسيين الإمام إبراهيم ابن محمد المقيم فى قرية الحميمة . وكان مروان يعرف شيئاً عن العلاقة الغامضة بين العباسيين وبين تلك الحركة الخطيرة والثورة العنيفة التى بدأت فى خراسان . وأخذت تنتقص أطراف ملكه وتقوض دولته ، ولكنه كان ينقصه البرهان القاطع والحجة الدامغة . وفى ثورة من ثورات الغضب ونوبة من نوبات اليأس أمر مروان أصحابه بأن يشددوا الرقابة على الطريق بين خراسان والحميمة ليجدوا الوثيقة المنشودة التى تسوغ له اتهام الزعيم العباسى . وأثمرت المراقبة ثمرتها المرجوة ، فبعد أيام معدودات من هذا التشديد مثل بين يديه بعض أصحابه ومعهم رسول يحمل رسالة من الإمام إبراهيم إلى أبى مسلم يوصيه فيها بالجد فى أمره ، ويرسم له الحدود التى يتبعها ، والخطط التى يأخذ نفسه بتنفيذها . وكانت هذه الرسالة مكتوبة بخط إبراهيم وممهورة بتوقيعه ، ولما تأمل مروان كتاب إبراهيم سرّ به ، على ما كان يحضره فى هذه الأيام العصبية من هموم ، وما كان يهجس بنفسه من الهواجس ، لأنه وجد فيه الحجة التى كان يلتمسها من زمن للقبض على إبراهيم وإرغامه والخلاص منه . وقد كان الأمويون يجدون متعة ومسلاة فى إذلال تلك الأسر الكبيرة التى كانت تنافسهم قديماً فى الرياسة ، وتساميتهم فى المكانة ، وكانوا يرحبون بالفرصة التى تتيح لهم ذلك . فلم يتردد مروان فى إصدار أمره إلى عامل دمشق بأن يكتب إلى عامل البلقاء بالتوجه إلى الحميمة والقبض على إبراهيم

وإشخاصه إلى حران ليقول مروان بنفسه التحقيق معه ، ومواجهته بتهمة الخيانة الكبرى . ولما توجه العامل إلى الحيمة ، كان لهذه المفاجأة وقع أليم في نفس إبراهيم وأهل بيته وأبناء عمومته ، ولكن العباسيين كانوا قد تعودوا إخفاء عواطفهم وكتمان أمورهم ، فلم يلبث إبراهيم أن استفاق من ذهوله ، وثاب إليه صفاء تفكيره ، وأدرك الموقف على حقيقته ، ولم يكن يتوقع النجاة من قبضة مروان ، ولذا نعى نفسه إلى أهل بيته ، وأمرهم بالمسير إلى الكوفة مع أخيه أبي العباس ، وبالسمع والطاعة له وأوصى إلى أبي العباس وجعله الخليفة من بعده . وكانت الحالة تستلزم المبادرة إلى الرحيل ، فقد أصبح يقاوم في الحيمة محفوفاً بالأخطار ، وخرجوا في ركب وهم لا يتجاوز عددهم أربعة عشر رجلاً ، وكان أكثرهم من الرجال ذوي الكفايات الذين قدر لهم أن تبقى أسماؤهم في الذاكرة ، وتعتلى بأخبارهم السير . وكان في طليعة رجالات هذا الركب رجلاً مديداً القامة كلاهما قد طوى برد الشباب وبلغ السابعة والثلاثين من عمره ، وكان أحدهما عمًا للآخر ، وكان العم أفتى حديد البصر أصفر الديباجة ، يبدو في حركاته النشاط والتوقد وبعد الهمة وعدم التردد ، وتلمح في عينيه بريق القسوة ، وكان الثاني أسمر رقيق السمرة نشع عيناه ذكاء ودهاء ، وتبدو عليه أنأة المفكرين ووقار العلماء ، وتسنيين في حركاته مظاهر اليقظة التامة مع التحفظ الشديد . وكان اسم الأول عبدالله بن علي ، واسم الثاني عبدالله بن محمد ، وكان يكنى بأبي جعفر ، ويروي لنا المسعودي هيروودوت التاريخ الإسلامي - كما

يرى العلامة روبرت فلنت ، أنهم وهم في طريقهم لقيتهم أعرابية على بعض مياه العرب ، وقد تقدم أبو العباس وأخوه أبو جعفر وعمه عبدالله فيمن كان معهم إلى الماء ، فقالت الأعرابية : « تالله ما رأيت وجوهاً مثل هذه ما بين خليفة وخليفة وخارجي » فاسترعى قولها التفات أبي جعفر ، فقال لها « كيف قلت ؟ » فقالت : والله ليبلغن هذا ، وأشارت إلى أبي العباس ولتخلفنه أنت وليخرجن عليك هذا ، وأشارت إلى عبد الله ابن علي .

وسواء كانت هذه الرواية من القصص الموضوعية التي يقصد بها المسعودي إلى الإغراب والتشويق ، أكثر مما يقصد إلى تحرى الحق ، أو كانت هذه الأعرابية قد استشفت بصفاء فطرتها وصادق حسنها بعض حجب الغيب المستور ، فان الواقع أن هذين الرجلين ، علي ما كان بينهما من أواصر القرى ، لم يكن كل منهما يألف صاحبه أو يستريح إليه ، فقد كان كلاهما شديد الأثرة بعيد المطامع كثير الاعتداد بنفسه ، وكان عبدالله ابن علي مقداما إلى حد التهور والاستهانة بالمواقب ، أما أبو جعفر فكان شديد الخذر فإذا أقدم على شيء كان على بينة من أمره ، وقد نشأ معا في الحميمة ، وكان يسليهما في هذا المنفى الموحش ما يعتلج في نفسيهما من الآمال والأحلام فتزدهر جدوبته وتمهون وحشته ، وكان العباسيون يطلبون شيئين ، وهما النفوذ والمال ، وكان في أبي جعفر إلى كفايته العملية طبيعة الباحث المنقب ، ولذا أولع بدراسة الفقه وصحبة العلماء ، أما عبدالله ابن علي فكانت نزعتة عملية محضة . ولما ثار بالأمويين عبدالله بن معاوية

العلوى وتغلب على فارس وكورها ، وامتد سلطانه وانتشر أمره ، وأتاه الناس من كل صوب وجبى المال وبعث العمال ، أتاه أبو جعفر وأتاه عبد الله بن علي ، ولكن عبد الله بن معاوية لم يكن الرجل الذي يستطيع أن يؤسس ملكا أو يقيم دعائم دولة ، فقد كان مغلوبا على أمره منقاداً لشهوته ، ولذا لم يلبث أن أفل طالعه ، وتبددت جموعه ، ومضى هارباً إلى خراسان وأسر عدد كبير من رجاله وفيهم عبد الله بن علي ، ولما مثل بين يدي قائد الجيش الأموي - ابن ضبارة - قال لعبد الله : « ما جاء بك إلى عبد الله بن معاوية وقد عرفت خلافه لأمر المؤمنين ؟ »

فأجابه عبد الله : « كان عليّ دين فأتيته » وأدرك عبد الله أن هذا الجواب لم يقنع القائد الأموي ، فأطلق لسانه في ابن معاوية ، وبالغ في تسفيه آرائه ، والنيل من أخلاقه ، وأعجبت هذه النعمة ابن ضبارة كما قدر عبد الله فأرسله إلى حاكم العراق ابن هبيرة ليعرف منه حالة ابن معاوية . أما أبو جعفر فانه لم يخرج من مأزق اتصاله بابن معاوية بهذه السهولة ، وناله من وراء ذلك الضرب والسجن .

وظل ركب العباسيين في سيره يطوى مراحل صحراء بادية الشام فدفعوا بعد فدفد ، يحدوه الأمل ويستحثه الخوف ، ولما انتهى الركب إلى تلك القرية الواقعة في منتصف الطريق - المعروفة بدومة الجندل - التقى بهم داود بن علي وابنه موسى ، وكانا عائدتين من العراق أو من غيرها ، فعجب داود لهذا اللقاء على غير ميعاد فقال لهم : « ما تريدون وما قصتكم ؟ »

فتولى الحديث معه أبو العباس وقص عليه قصتهم ، وذكر له أنهم يريدون الكوفة ليظهروا بها ويظهروا أمرهم ، فاستكثر داود هذه الجراءة وعدها مغامرة خطيرة ، وقال لابن أخيه

« يا أبا العباس تأتى الكوفة وشيخ بني مروان ، مروان بن محمد مطل على العراق فى أهل الشام والجزيرة ، وشيخ العرب يزيد بن عمر بن هبيرة بالعراق فى حلبة العرب ؟ »

فسمع من جانب أبى العباس هذا الجواب الموجز الجامع : « من أحب الحياة ذل » وسمت به هذه الكلمة فوق مرتبة الخوف والتردد وحساب المكسب والخسارة ، فالتفت إلى ابنه وقال له : « صدق ابن عمك ، فارجع بنا معه نعش أعزاء أو نمت كراما »

واتجهوا بعد ذلك إلى ناحية الشمال الشرقى ضاربين فيما بين بادية العراق وبادية الجزيرة آخذين فى طريق الكوفة ولما شارفوا الكوفة وجه أبو العباس رسولا إلى أبى سامة كبير دعاة العباسيين بها ، فأنكر مقدمهم وقال للرسول : « خاطروا بأنفسهم وعجلوا فليقيموا بقصر مقاتل — وهو على مرحلتين من الكوفة — حتى ننظر فى أمرنا » فعاد إليه الرسول وكتبوا إليه « إنا فى برية ولا نأمن فقد جيوش الشام إيانا لأنهم بهيت على ثلاث مراحل منا » وسألوه الإذن لهم فى الدخول إلى الكوفة ليتحرزوا بها ، فأذن لهم على كره منه ، وكنتم أمرهم نحو من شهرين من جميع القواد والشيعة . وأرجح أن أبا سامة لطول إقامته فى العراق وأكثر أهلها شيعة على تأثر

بمذهبهم وارتأى رأيهم في أن الخلافة حق من حقوق أولاد علي ، فلما صح عنده موت الإمام إبراهيم حاول نقل الأمر إلى العلويين ، وكان ثلثة من أعيانهم ، ولكنهم رفضوا دعوته وآثروا السلامة ، وارتاب أهل خراسان بأبي سلمة ، وساءهم أن يعظم نفوذه ويستأثر بالأمر ، وعلموا بعد ذلك بوجود أبي العباس في الكوفة ، فأحبطوا ما أراده أبو سلمة وذهبوا إلى الكوفة وقابلوا أبا العباس وساموا عليه بالخلافة . ولما علم أبو سلمة بذلك اضطر إلى الهجاء بنفسه وسلم على أبي العباس بالخلافة . وظهر في أعقاب ذلك أبو العباس في الكوفة وألقى خطبته المشهورة وأخذت له البيعة ، ثم خرج من الكوفة وعسكر في حمام أعين وفي عسكر أبي سلمة واستخلف على الكوفة عمه داود .

كان الآن العمل المقدم والخطوة الحاسمة هي التغلب على مروان ، وهزيمة وتمزيق جيشه ، فدعا أبو العباس أهل بيته وعرض عليهم قيادة الجيش الذي سيتولى محاربة مروان ، ورغبة منه في تشجيعهم قطع على نفسه عهداً بأن يجعل ولاية العهد لمن يهزم جموع مروان . فتقدم عبد الله بما عرف عنه من إقدام واستهانة بالأخطار ، والحقيقة أن عبد الله كان يحاول أن يقتنص كل فرصة تمكنه من تحقيق ما يخلج بنفسه من المطامع ، وللحروب جاذبية خاصة لأمثال هذا الرجل المغامر المقامر ، فهي قد ترفع أحياناً إلى درجة البطولة . وعرف عبد الله كيف يستثير حمية جنده وبيتمت شجاعتهم ، ويذكر لهم سوء سياسة الأمويين بلهجة مؤثرة وطرائق مسرحية ، فهزموا جيش مروان هزيمة منكرة على مقربة من مدينة أربيل التي هزم عندها

الإسكندر المقدوني جموع الفرس . وكان جيش مروان يفوق جيش عبد الله في العدد والعدة ، ولكن عبد الله عرف كيف يقوى روح جيشه المعنوية وكيف يعمل بنصائح القادة المحنكين من رجاله . وقد حارب مروان ومؤخرة جيشه خلفها نهر الزاب الأعلى فلما وقعت الهزيمة كان عدد العرقى في النهر من جيشه اللجب أكثر من عدد القتلى الذين سقطوا في الميدان ، ولم يمكنه ذلك من جمع فلوله ليشتبك مع جيش عبد الله في معركة أخرى . على أن هزيمة مروان وتحطيم قوته لم تكن خاتمة متاعب العباسيين ، فقد كان على عبد الله أن يضطلع بعد ذلك بعبء إخضاع سوريا وهي حصن الدولة الأموية ، واقتحام مدينتها والقضاء على نفوذ بني أمية فيها . ولم يكن ذلك بالأمر الهين ولا بالمطلب السهل ، فقد كانت قوة بني أمية متركرة في سوريا ، وكان لا يزال بها كثير من زعماء العشائر وشجعان القواد الذين يميلون إلى بني أمية ويدينون لهم بالوفاء . وقد برهن عبد الله على أنه رجل مثل هذا الموقف ، وقد كان عبد الله بطبيعته رجلاً فتاكاً رهيباً لا يعرف هاتف الضمير ولا وسوسة العاطفة ، وكان من هؤلاء الرجال الأفاضال الذين يتخذهم القدر آلات صماء لتنفيذ مآربه وتحقيق غاياته ، ويشعر الإنسان عند التفكير في أعمالهم وإقدامهم على الكبار أنهم مدفوعون بقوى كونية مجهولة ودوافع خفية تجعلهم ينطلقون من كل قيد ويقطعون كل علاقة ، وقد أسرف عبد الله في القتل وسفك الدماء حتى صار أكثر جدارة بهذا اللقب البغيض « السفاح » من ابن أخيه اللين المستضعف الخليفة

أبي العباس . ولكن هذه القسوة وطدت ملك أسرته ، وجعلت الخليفة العباسي الأول يأمن جانب الشام ، ولم يكن ذلك بالأمر القليل الأهمية والدولة في طالعة أمرها والذين يبعثون بها السوء كثيرون . وعرف له أبو العباس فضله وحسن بلائه فأقره على ولاية الشام . على أن أبا العباس حاول بعد ذلك أن يتحلى من العهد الذي قطعه على نفسه بأن يجعل المتغلب على مراون ولي عهده . واستشار في ذلك أصحابه وخاصته فنصحوا له بالأخراج الخلافة من ولد أبيه إلى ولد عمه . وفي السنة التي توفي فيها أبو العباس عقد لأخيه أبي جعفر الخلافة من بعده وجعله ولي عهد المسلمين ، ومن بعده إلى عيسى بن موسى وكتب العهد بذلك وصيره في ثوب وختم عليه بخاتمه وخواتيم أهل بيته ودفعه إلى عيسى بن موسى .

وفي نفس السنة قدم أبو مسلم العراق من خراسان على أبي العباس . ولما دنا من الأنبار أمر أبو العباس الناس يتلقونه ، وأقبل إلى أبي العباس فدخل عليه فأعظمه وأكرمه ، ثم استأذن أبا العباس في الحج فقال له : « لولا أن أبا جعفر يحج لاستعملتك على الموسم » وكان ما بين أبي جعفر وأبي مسلم متباعداً ، وكان أبو العباس قد تعمد استدعاء أبي جعفر من الجزيرة وأسند إليه إمارة الحج ليتجنب إسنادها إلى أبي مسلم خشية ازدياد نفوذه وتسامي مكانته . وقدم عليه عمه عبد الله فعقد له أبو العباس على الصائفة في أهل خراسان وأهل الشام والجزيرة والموصل ، وسار عبد الله على رأس هذا الجيش الكثيف حتى بلغ أطراف الدروب ، وبينما كان

أبو جعفر وأبو مسلم عائدتين من الحج والمنافسة بينهما في الطريق على أشدها، وكان عبد الله يُغذ السير ليتوغل في الدروب أصيب الخليفة أبو العباس بالجدري ، ولم يرحم هذا المرض الوبيل وجهه الحسن ولا شبابه الناضر الغض ، فمات لاثنتي عشرة ليلة مضت من ذي الحجة بالأنبار، وكانت وفاته إيذاناً باشتداد الصراع بين الرجال الثلاثة الذين كانوا دعامة ملكه وغول دولته ، وهم عبد الله بن علي والى الشام ، وأبو جعفر والى الجزيرة ، وأبو مسلم والى خراسان ، وقد كانت المنافسة بينهم موجودة من قبل ولكنها كانت خفية المدب ، ناعمة الملمس .